المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تعظيم الله تعالى
في هدايات القرآن الكريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

أثر الخمسة المباني في تعظيم الخالق الباري

اسم الباحث

أ.د/ عثمان علي حسن

أ. د. عثمان علي حسن

أثر الخمسة المباني

في تعظيم الخالق الباري

المقدمة

تعظيم الله تعالىٰ هو أصل الإسلام وحقيقته؛ بشعائره وشرائعه، والتي تشمل: العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، فكلها من مظاهر هذا التعظيم وآثاره، فالله تعالىٰ عظيم في ذاته وفي أسمائه وصفاته وأفعاله، وعظيم في ملكوته وسلطانه، وكذلك عظيم في تشريعاته وأحكامه، فله سبحانه العظمة المطلقة، التي لا تجاريها عظمة، فضلا عن مجاوزتها أو منازعتها، والقرآن الكريم حافل بهذا التأكيدات؛ وقد كان من أول ما نزل من القرآن: سبح باسم ربك الذي خلق، وسبح اسم ربك الأعلىٰ، فسبح باسم ربك العظيم، وعَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدائي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ، وَمَنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا، اقْتَرَبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنِ اقْتَرَبَ مِنِّي ذِرَاعًا، اقْتَرَبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ جَاءَنِي يَمْشِي، جِئْتُهُ أُهَرْوِلُ، وَمَنْ جَاءَنِي يُهَرْوِلُ، جِئْتُهُ أَسْعَىٰ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَطْيَبَ**»[1].

وتعظيم الله تعالىٰ عبادة قلبية، بل من أعظم العبادات القلبية، بل هو أساس كل عبادة؛ إذ هو شرط قبولها عند الله، وأيضا سبب نمائها واستمرار العبد فيها ومداومته عليها، لأن التعظيم مرتبط بالإخلاص، وما كان لله دام واتصل.

وكما أن التعظيم لله هو دافع العبد للانقياد لدينه؛ شرائعَ وشعائرَ، فكذلك هذه الشعائر والشرائع تغذي التعظيم في القلب وتنميه، فهي عملية متناوبة ومتداخلة.

شرع الله تعالىٰ الشعائر التعبدية لتكون آية علىٰ إيمان صاحبها، وإذعانه لأحكام الإسلام، وهذه الشعائر تبلغ في أهميتها أن تكون أركانا للدّين، لا يقوم إلّا عليها، ولا يصلح أمره إلا برعايتها والعناية بها، ولهذا جاء في الحديث: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»[2].

وهذه الأركان تكاليف شرعية تؤكد انتماء صاحبها للإسلام ولجماعة المسلمين، لها شروطها وأركانها وواجباتها، كما أن لها مفسداتها ونواقضها، لكنها في حقيقتها هي التدريب العملي لتحقيق العبودية لله، وإعلان التعظيم له، ولدينه.

---

(١) صحيح ابن حبان (٢/ ٣٥؛ ح ٣٢٨). وانظر: صحيح البخاري (٩/ ١٢١؛ ح ٧٤٠٥)، وصحيح مسلم (٨/ ٣٥؛ ح ٢٦٢٠).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري (١/ ١٢؛ ح ٨)، وصحيح مسلم (١/ ٤٥؛ ح ٦٦).

فكل ركن من أركان الإسلام الخمسة يحمل معنىٰ التعظيم لله والتوقير له بشكل واضح، يشعر به المسلم عند قليل من التأمل، مع تفاوت الناس في الانفعال بهذا الشعور، وظهور أثره عليهم.

ويأتي هذا البحث لبيان علاقة مباني الإسلام الخمسة بقضية تعظيم الله تعالىٰ، ومشاركة مني في إبراز هذا الجانب المهم الذي هو روح العبادة وغايتها وضمان الاستمرار عليها، وحقيقة التلذذ بها، وذلك من خلال هدايات القرآن الكريم والحديث الشريف، ملتزما بمناهج الاستقراء والتحليل والاستنباط، ويكون مشتملا علىٰ المطالب التالية:

- المقدمة.
- المطلب الأول: أثر الشهادتين في تعظيم الله.
- المطلب الثاني: أثر الصلاة في تعظيم الله.
- المطلب الثالث: أثر الزكاة في تعظيم الله.
- المطلب الرابع: أثر الصيام في تعظيم الله.
- المطلب الخامس: أثر الحج في تعظيم الله.
- الخاتمة.

وأسأل الله تعالىٰ التوفيق والسداد في القول والعمل، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا،،

المطلب الأول: أثر الشهادتين في تعظيم الله

والمقصود بالشّهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدا رسول الله، فهما شعار الإسلام وباب الدّخول إليه، وشرط التسمي به، وبهما يُعصم الدم والمال، وهما أوّل واجب علىٰ المكلّف كما قرر ذلك علماء أهل السنة استنادا إلىٰ أدلة القرآن والسنة. وعليهما مدار الولاء والبراء، والثواب والعقاب.

الشّهادة الأولىٰ تعني توحيد المعبود؛ فلا أحد يستحق العبادة إلا الله، والشهادة الثانية تعني توحيد المتبوع؛ فلا أحد من البشر يستحق أن يطاع ويُتبع بإطلاق إلا رسول الله، فهو دليلنا إلىٰ الله والمبلغ عنه مراده. ولهذا قيل: التوحيد توحيدان؛ توحيد المرسِل وتوحيد المرسَل، يقول شارح (الطحاوية): «فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل وتوحيد متابعة الرسول فلا نحاكم الىٰ غيره ولا نرضىٰ بحكم غيره»[1].

«فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتىٰ يسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فجواب الأولىٰ بتحقيق لا إله إلا الله معرفة وإقرارا وعملا، وجواب الثانية بتحقيق أن محمدا رسول الله معرفة وإقرارا وانقيادا وطاعة»[2].

هاتان الشهادتان؛ يُستقبل بهما المولود من المسلمين عند خروجه إلىٰ الدنيا، فتكونان أول شيء يطرق سمعه الرقيق، ويودع بهما المحتضَر وهو يغادر الدنيا، فتكونان آخر شيء يصل إلىٰ سمعه المتعب، وما بين البداية والنهاية ينبغي أن تعمر حياة المسلم بهما، فبهما يُبتدأ اليوم ويُختتم؛ خمسة نداءات للصلاة التي هي أعظم ركن بعد الشهادتين، وبهما تُستفتح الصلاة نفسها كما في الإقامة، وبهما تختتم كما في التشهد.

ولم يجد كليم الله موسىٰ عليه السلام ذكرا أو دعاءً أعظم من لا إله إلا الله، كما جاء في الحديث: **قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ قَالَ: قُلْ يَا مُوسَىٰ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا. قَالَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَىٰ لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**[3].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لأبي ابن العز الحنفي (ص ١٨٨).

(٢) زاد المعاد لابن القيم (١/ ٣٥).

(٣) صحيح ابن حبان (١٤/ ١٠٢؛ ح ٦٢١٨)، والمستدرك (١/ ٥٢٨؛ ح ١٩٤٢)، وصحّح سنده ابن حجر، الفتح (١١/ ٢٠٩).

شهد الله بها لنفسه وأشهد عليها أفضل خلقه؛ قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]. قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتضمنت هذه الآية أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به»(١).

وهي محض حق الله علىٰ عباده؛ لأجلها خلق الله عباده وأوجدهم من العدم، وعليها أُسست الملة، ونُصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد، وقام سوق الجنة والنار، وعليها يحاسب الله عباده ويجازيهم ثوابا وعقابا. فعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخَرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ؟»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»(٢).

وهي من أحب الكلام إلىٰ الله تعالىٰ وأطيبه، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَىٰ اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ»(٣).

وهي كلمة الله العليا، قال تعالىٰ: ﴿مِنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾[البقرة: ٢٥٥].

وهي العروة الوثقىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٥٦]، والكلمة الطيبة، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم]، والكلمة الباقية، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[الزُّخرُف: ٢٨].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هي لا إله إلا اللهُ، جعَلَها دائمةً في ذريته يقتَدِي به فيها من هدَاه الله تعالىٰ من ذريةِ إبراهيم»(٤).

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٥٠).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ٢٩؛ ح ٢٨٥٦، وصحيح مسلم (١/ ٤٣؛ ح ٣٠).

(٣) صحيح مسلم (٦/ ١٧١؛ ح ٢١٣٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٥).

وهى أعلىٰ شعب الإيمان وأفضلها، لحديث: «**الإيمانُ بضعٌ وسبعون شعبةً، فأفضلُها: قولُ: لا إله إلا الله**»(١).

ولا تكون سلامة القلب إلا بها، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما عن القلب السليمُ: «حيٌ يشهَدَ أنْ لا إلهَ إلا الله»(٢).

وهى مفتاح دعوة الرسل وأساس الرسالات جميعها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهى أفضل ذكر قاله الأنبياء يوم عرفة ركن الحج الأعظم، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»(٣).

وهى التى تنجى صاحبها من الشدائد، قال تعالىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء].

وهى التى تدفع عذاب الله وغضبه عن قوم بعد أن استحقوه، قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس].

ومن كان آخر كلامه في الدّنيا لا إله إلا الله أفلح وأنجح، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(٤).

وهى أول ما يُسأل عنه العبد في قبره، فعَن النَّبيِّ ﷺ، قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم]، قال: «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ؛ يُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ - فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾»(٥).

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٤٦؛ ح ٣٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ١٤٩).

(٣) موطأ مالك (٢/ ٣٠٠؛ ح ٧٢٦/ ٢٣٩)، سنن البيهقي (٤/ ٢٨٤؛ ح ٨٤٧٩).

(٤) المستدرك (١/ ٣٥١؛ ح ١٣٠٣)، سنن أبي داود (٣/ ١٥٩؛ ح ٣١١٦)، مسند أحمد (١٠/ ٥١٦٩؛ ح ٢٢٤٥٨).

(٥) صحيح البخاري (٢/ ٩٧؛ ح ١٣٦٩)، صحيح مسلم (٨/ ١٦٢؛ ح ٢٨٧١).

هى أثقل شيء في الميزان يوم القيامة لا تثبت معها سجلات السيئات وإن كثرت، حتىٰ تطيش وتتطاير، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ شَيْئًا مِنْ هَذَا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ وَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ لَهُ بِطَاقَةً فِيهَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، قَالَ: فَلَا يَثْقُلُ اسْمَ اللهِ شَيْءٌ»[١].

وهى التى تُسعد صاحبها بشفاعة أكرم الخلق ﷺ: «أسعَدُ الناس بشفاعَتِي يومَ القيامةِ: من قال: لا إله إلا الله خالِصًا من قلبه أو نفسِه»[٢].

وهى التى تنجّى صاحبها من النّار بعد أن استقر فيها، فعَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»[٣].

وهى مفتاح الجنة وشرط دخولها: قيل لوهب بن منبّه: أليس لا إله إلّا الله مفتاح الجنّة؟ قال بلىٰ، ولكن ليس مفتاحٌ إلّا له أسنانٌ، فإن جئتَ بمفتاح له أسنانٌ فُتِح لك، وإلّا لم يفتح لك[٤].

فها هى كلمة التوحيد تملأ علىٰ المؤمن حياته في جميع مراحلها وكافة تفاصيلها؛ منذ الولادة وإلىٰ الموت ثم إلىٰ دار القرار في جنات النعيم، ومن عاش بلا إله إلا الله مات عليها، وبُعث عليها، وكانت سببا في سعادته الأبدية. ومن ثقُلت عليه في حياته ثقُلت عليه عند مماته، وتعرَّض لوعيد الله وسخطه.

كلمة التوحيد تسيطر علىٰ حياة المؤمن؛ فهو يرددها في اليوم والليلة عشرات المرات وجوبا واستحبابا؛ بل كل الأذكار تركز علىٰ معنىٰ التوحيد؛ شرحا لمعناها، وتحقيقا لمغزاها،

---

(١) صحيح ابن حبان (١/ ٤٦١؛ ح ٢٢٥)، وسنن الترمذي (٤/ ٣٧٩؛ ح ٢٦٣٩)، وسنن ابن ماجه (٥/ ٣٥٦؛ ح ٤٣٠٠).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٣١؛ ح ٩٩)، (٨/ ١١٧؛ ح ٦٥٧٠).

(٣) صحيح البخاري (١/ ١٧؛ ح ٤٤)، وصحيح مسلم (١/ ١٢٣؛ ح ١٩٣).

(٤) صحيح البخاري (٢/ ٧١؛ ح ١٢٣٧)، ومسلم في صحيحه (١/ ٦٦؛ ح ٩٤).

وثبيتا لفحواها وأداءً للوازمها؛ فهى أغلىٰ من الدّنيا وما فيها: «**لأن أقولَ: سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحبُّ إليَّ مما طلَعَت عليه الشمس**»(١).

وكلمة التوحيد تضمنتها أعظم آية في القرآن الكريم، آية الكرسى، واشتمل عليها سيد الاستغفار. وهى مضمنة في أذكار الطهارة والوضوء، والأذان والإقامة وافتتاح الصلاة وفي خاتمتها وأذكار ما بعد الصلاة، وفي مشاعر الحج والعمرة.

ولا إله إلا الله ليست مجرد ألفاظ تلوكها الألسن، بل هى معان كبرىٰ، تُغيَّر حياة صاحبها في: منشطه ومكرهه، وفي عسره ويسره، وصحته ومرضه، وقوته وضعفه، وغناه وفقره، وحربه وسلمه، وأخذه وعطائه، وحبه وبغضه؛ منها ينطلق وبها يتقيد، وعلىٰ أساسها تُبنىٰ العلاقات بين الناس؛ أفرادا ومجتمعات، ولاءً وبراءً، ثوابا وعقابا.

ولو كانت مجرد كلمة لسهل علىٰ مشركى العرب التلفظ بها، ولو مجاملة، وهم بنو العمومة، لكنهم أدركوا التزاماتها؛ أن يجددوا لباسهم، ويُغيروا حياتهم، فعزَّ عليهم ذلك، وقالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، فما قدروا الله حق قدره.

ولهذا ذكر العلماء لها شروطا حتىٰ تؤتي أُكُلها، وينتفع بها صاحبها، في الدنيا والآخر: فمن ذلك: العلم المنافي للجهل، واليقين المنافي للشك، والإخلاص المنافي للرياء، والصدق المنافي للكذب، والمحبة المنافية للبغض والكره، والانقياد المنافي للترك، والقبول المنافي للرد.

فهذه الكلمة تستفيد عظمتها من عظمة الله وتعظيمه لها، ولهذا تحتاج من صاحبها التدبر في معانيها، والالتزام بشروطها، والقيام بحقوقها، مع تجنب نواقضها ومنقصاتها؛ فهي أعظم كلمة في الدنيا، وأثقل شيء في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم].

قال ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما: «الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة المؤمن»(٢).

إنّ كلمة التوحيد تجسد تعظيم الله تعالىٰ علىٰ مدار حياة المؤمن؛ في خلواته وجلواته، وفي تحركاته كلها وتقلباتها، لا يزال لسانه رطبا بها، وقلبه عامرا بها، حتىٰ تُدركه سعادة الدارين ۞

---

(١) صحيح مسلم (٨/ ٧٠؛ ح ٢٦٩٥).

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٣٥٩).

المطلب الثاني: أثر الصلاة في تعظيم الله تعالى

الصلاة تأتي في الترتيب والأهمية بعد التوحيد مباشرة؛ فلئن كان من التوحيد ما يتعلق بمعرفة الرب وما يستحقه من الإجلال والتعظيم فالصلاة ترجمة عملية لهذا التعظيم والإجلال؛ تحقيقا قلبيا ووجدانيا وممارسة فعلية علىٰ مدار اليوم والليلة، وفي كل أحوال الإنسان من صحة ومرض، وقوة وضعف، وأمن وخوف، وحضر وسفر، فليست الاستطاعة شرطا في الصلاة كما في بقية الأركان الثلاثة التالية، بل كل أحد بالغ عاقل هو مستطيع بالضرورة، يصلي بحسب حاله، حتىٰ فاقد الطَهورين إذا قُدر وجوده فلا تسقط عنه الصلاة، كما لا يُشترط لها مكان معين لا تصح إلا فيه، بل جعل الله الأرض مسجدا وتربتها طَهورا، فهي الحبل المتين الذي يوصل صاحبه بربه وخالقه؛ مناجاة وأنسا وتزكية للنفس وراحة لها.

ومن عجيب أمر الصلاة أنها جمعت بين أركان الإسلام الخمسة في وقت واحد؛ فالشهادتان ترددان في الإعلان عن وقتها، وعند إقامتها، وفي تشهدها، وفي تسبيحاتها، والزكاة تتجلىٰ في اقتطاع جزء من الوقت يتوزع أثناء اليوم والليلة طاعة لله، والصيام يتجلىٰ في الامتناع عن الأكل والشرب بل وعن الكلام أثناء الصلاة وحتىٰ نهايتها، والحج يتجلىٰ في الإحرام بتكبيرة الإحرام، وفي التوجه إلىٰ بيت الله الحرام، وفي التهليل والتكبير، ثم التحلل في نهايتها بالتسليم. فالمصلي يمارس أركان الإسلام مجتمعة في شعيرة واحدة؛ فما أعظمها من شعيرة، فمن حُرمها فالخير كله قد حُرم. وصدق رسول الله ﷺ حين يقول: «**أرحنا بها يا بلال**»[1]، ويقول: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[2].

ومن مظاهر التعظيم لله في الصلاة:

أولا: تحري وقتها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]، فذلك من تعظيم الله، فمن امتلأ قلبه تعظيما لله كان معظما للصلاة، متحريا لوقتها، متهيأ لها، مراعيا حقوقها، مع شعوره بالطمأنينة فيها، والراحة النفسية عند أدائها، ولا يشعر بشيء هو أخسر عنده من فوات وقتها وتضييع حقوقها. وقد أثر عن بعض السلف، أنهم كان يعزي بعضهم بعضا عند فوات وقتها؛ قَالَ حَاتِمٌ الْأَصَمُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَاتَتْنِي مَرَّةً صَلَاةٌ فَعَزَّانِي أَبُو

---

(١) سنن أبي داود (٤/ ٤٥٣؛ ح ٤٩٨٥)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٧٧؛ ح ٦٢١٥).

(٢) الأحاديث المختارة للمقدسي (٤/ ٣٦٦؛ ح ١٥٣٢)، المستدرك (٢/ ١٦٠؛ ح ٢٦٩١).

إِسْحَاقَ الْبُخَارِيُّ وَحْدَهُ، وَلَوْ مَاتَ لِي وَلَدٌ لَعَزَّانِي أَكْثَرُ مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ نَفْس؛ لِأَنَّ مُصِيبَةَ الدِّين عِنْدَ النَّاس أَهْوَنُ مِنْ مُصِيبَةِ الدُّنْيَا»[(١)]، قال تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور].

ولئن قالوا: النوم سلطان، لا يقوىٰ أحد علىٰ مغالبته، فسلطان الصلاة أعظم قوة، يَدَعُ المصلىٰ نومه وراحته وفراشه الوثير؛ لينهض في ساعة لم يعتد عامة الناس عليها، إلا لمعاش أو دنيا يصيبها، أما المصلىٰ فيجيب داعي ربه: حي علىٰ الصلاة، حي علىٰ الفلاح، الصلاة خير من النوم. فيلبي ذلك رغبة وشوقا وتعظيما لخالقه. ويتأكد ذلك في الصلوات النوافل، مثل: صلاة الضحىٰ في أول النهار حين ترمض الفِصال؛ فيقوم الأوَّاب بين يدي ربه معظما ومناجيا، والناس في شغل بقيلولة أو معاش. وأعظم من ذلك نافلة الليل التي هي أشد وطئا وأقوم قيلا، فهي دأب الصالحين، وشرف المؤمنين، وحال الأنبياء والمرسلين[(٢)]:

إِذَا مَا اللَّيلُ أظلَمَ كَابَدُوه ... فيسفرُ عنهمُ وهمُ ركوعُ
أطَارَ الخَوفُ نومَهُم فَقَامُوا ... وَأهلُ الأمنِ فِي الدُنَيا هُجُوعُ
لَهُم تَحتَ الظَّلامِ وَهُمْ سُجُودٌ ... أنِينٌ مِنهُ تَنفَرجُ الضُّلُوعُ
وَخُرسٌ بالنَّهارِ لِطُولِ صمتٍ ... عليهِم منْ سكينتهمْ خشوعُ

منْ غيرُ المعظم ربه، الراجي عفوه، الطامع في رضوانه، يقوم في مثل هذه الساعة مغالبا النوم ليقف بين يدي منْ لا تأخذه سنة ولا نوم، قال تعالىٰ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات].

ثانيا: ومن مظاهر التعظيم: شهودها في جماعة، ويزداد الحضور في الجُمع، وأكثر منه في الأعياد؛ في تجمع يومي، وآخر أسبوعي، وثالث سنوي، إلىٰ جانب صلوات النوازل، عند خسوف القمر، وكسوف الشمس، وعند الجدب وشح الأمطار، فهذه المشاهد فيها من تعظيم الرب ما فيها؛ وقد تناقلت عدسات الفضائيات تزاحم المسلمين في الأعياد في بلاد أوربا، في صفوف الصلاة وقد اكتظت بهم شوارع المدن الرئيسة، خلف إمام واحد، يؤدون حركات منتظمة، في مشهد مهيب ومؤثر.

---

(١) الزواجر، لابن حجر الهيثمي (١/ ٢٢٧).

(٢) ديوان عبد الله بن المبارك (١/ ١٦).

قد تضافرت النصوص في الحث علىٰ صلاة الجماعة؛ حتىٰ ذهب كثير من العلماء إلىٰ وجوبها، بل ذهب بعضهم إلىٰ القول بأنها شرط صحة في الصلاة(١).

فللصلاة منزلة عظيمة عند المسلمين، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرًا غَيْرَ الصَّلَاةِ.(٢)

وقد كان الرجل المريض يؤتىٰ به إلىٰ المسجد يُهادىٰ بين الرجلين حتىٰ يقام في الصف، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَىٰ اللهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَىٰ بِهِنَّ فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَىٰ، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَىٰ. وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ. وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ. وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَىٰ مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَىٰ بِهِ يُهَادَىٰ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّىٰ يُقَامَ فِي الصَّفِّ**(٣).

ولقد همَّ النبي ﷺ بتحريق بيت من لا يشهد الصلاة مع جماعة المسلمين مكتفيا بالصلاة في بيته(٤).

ثالثا: ومن تعظيم الله تعالىٰ في هذه الشعيرة العظيمة مراعاة طهارة البدن والملبس والمكان الذي تؤدىٰ فيه؛ فالطهارة شرط صحة في الصلاة؛ ونصوص القرآن والسنة في ذلك متوافرة، بل في أول ما نزل من القرآن الكريم يقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدَّثر].

فالآيات جمعت في الأمر بين تكبير الله وتعظيمه وبين طهارة الثياب وبين تجنب الأوثان التي نجاستها معنوية. والطهارة أول باب في كتب الفقه؛ فيه بيان أنواع المياه وأحكامها، إلىٰ جانب أحكام الوضوء والغسل والتيمم وما يتعلق بها، بتفاصيل دقيقة وأحوال بديعة. حتىٰ يُقْبِل المصلىٰ علىٰ ربه في جوٍ مفعم بالطهر والنقاء والصفاء.

---

(١) راجع كتب الفقه وشروح الأحاديث مثل فتح الباري لابن حجر، ويُراجع السيل الجرار للشوكاني، وكتاب الصلاة لابن قيم الجوزية.

(٢) المستدرك (علىٰ الصحيحين؛ ح ١٢).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٢٤؛ ح ٦٥٤)، وصحيح ابن خزيمة (٣/ ١٦؛ ح ١٤٨٣).

(٤) صحيح البخاري (١/ ١٢٦؛ ح ٦١٥)، وصحيح مسلم (٢/ ٣١؛ ح ٤٣٧).

رابعا: ومن مظاهر التعظيم؛ أنه يدعىٰ لها بالصوت الندي المرتفع، خمس مرات في اليوم والليلة، حين يصدح المؤذن من علىٰ المآذن، ومن خلال مكبرات الصوت، بألفاظ التعظيم والإجلال؛ من تكبير وتوحيد، وإقرار برسالة محمد ﷺ، ودعوة إلىٰ الصلاة والفلاح، ثم يختم بما بدأ به تأكيدا وتقريرا، والمؤذن يبالغ في رفع صوته حتىٰ يشهد له ـ يوم القيامة ـ كلُ شيء سمعه[1].

خامسا: ومن مظاهر التعظيم أيضا، بناء المساجد والعناية بها، فهي بيوت الله؛ ونسبتها إلىٰ الله إنما للتعظيم والتشريف والتكريم؛[2] لأنه يقام فيها ذكر الله، لا أحد مع الله، لا بيع ولا شراء ولا تجارة، فضلا عن اللهو ونحوه، ذكر الله فقط وما والاه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

وما أجمل مظهر الناس وهم يتجهون إليها من كل حدب وصوب، كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم، غنيهم وفقيرهم، بل وصحيحهم ومريضهم، تخلَّوا جميعا عن ألقاب الدنيا ومراتبها ليستجيبوا لداعي الحق، متبرئين من حولهم وقوتهم، وهم يرددون مع المؤذن في الحَيعَلَتين: لا حول ولا قوة إلا بالله. فإذا وصلوا المسجد كانت مواقعهم فيه بحسب تبكيرهم إليه، لا بحسب أي شيء آخر.

فإذا أقيمت الصلاة وتقدمهم أقرؤهم وأفقههم في الدين، اصطفوا خلفه بالاعتبار السابق نفسه، لا بأي اعتبار آخر.

سادسا: ومن مظاهر التعظيم ابتداء الدخول في الصلاة بتكبيرة الإحرام، وهي أول أركان الصلاة التي لا تصح بدونها، وهي إعلان بأن المصلىٰ انقطع عن الدنيا وشواغلها، فهو بين يدي خالقه وبارئه الكبير المتعال، فلا شيء من مظاهر الدنيا يستحق الانشغال به، فالله أكبر

---

(١) قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «الْمُؤَذِّنُ يُغْفَرُ لَهُ مَدَىٰ صَوْتِهِ، وَيَشْهَدُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ». صحيح ابن خزيمة (١/ ٤٧٧؛ ح ٣٩٠)، وصحيح ابن حبان (٤/ ٥٥١؛ ح ١٦٦٦).

(٢) روي عنه صلىٰ الله عليه وسلم: أنه كَانَ إِذَا رَأَىٰ الْبَيْتَ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ زِدْ هَذَا الْبَيْتَ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا وَمَهَابَةً، وَزِدْ مَنْ شَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ وَعَظَّمَهُ مِمَّنْ حَجَّهُ أَوِ اعْتَمَرَهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا وَتَعْظِيمًا وَبِرًّا». سنن البيهقي (٥/ ٧٣؛ ح ٩٣٠٥)، وهو حديث منقطع.

من ذلك كله؛ فبعد هذه التكبيرة يحرم عليه الكلام والطعام والالتفات، فكل ما كان قبل الصلاة مباحا فهو بعد هذه التكبيرة يصير حراما، وهكذا يستمر التحريم حتىٰ تنقضي الصلاة بالتسليم والعودة إلىٰ ما كان مباحا من كلام وطعام وحركة.

سابعا: ومن مظاهر التعظيم: السورة الراتبة والتي تقرأ في مفتتح كل ركعة، ولهذا سميت بالمثاني، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر]. والصلاة من دونها خداج خداج غير تمام[1]، هي سورة الفاتحة أم الكتاب وفاتحته: «**ما أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا**»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عنها: «فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنىٰ، والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم والخوف والحزن، لمن عرف مقدارها، وأعطاها حقها، وأحسن تنزيلها علىٰ دائه، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها، والسر الذي لأجله كانت كذلك ولما وقع بعض الصحابة علىٰ ذلك رقىٰ بها اللديغ فبرأ لوقته، فقال له النبي ﷺ: **وما أدراك أنّها رُقية**[3]. ومن ساعده التوفيق، وأُعِين بنور البصيرة حتىٰ وقف علىٰ أسرار هذه السورة وما اشتملت عليه من التوحيد، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية، وكمال التوكل والتفويض إلىٰ من له الأمر كله وله الحمد كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله، والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين، وعلم ارتباط معانيها بجلب مصالحهما ودفع مفاسدهما، وأن العاقبة المطلقة التامة والنعمة الكاملة منوطة بها موقوفة علىٰ التحقق بها؛ أغنته عن كثير من الأدوية والرقىٰ، واستفتح بها من الخير أبوابه، ودفع بها من الشر أسبابه»[4].

(سورة الفاتحة) فيها من التعظيم لله ما فيها؛ فهي تشتمل علىٰ التحميد والثناء والتمجيد لله تعالىٰ: يقول الله تعالىٰ: حمدني عبدي. أثنىٰ علي عبدي. مجدني عبدي. مع إفراد الله بالعبادة والاستعانة كما جاء في الحديث: «**يقول اللهُ تَعَالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي**

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٩؛ ح ٣٩٥)، وموطأ مالك (٢/ ١١٤؛ ح ٧٨/ ٢٧٨).

(٢) صحيح البخاري (٦/ ٨١؛ ح ٤٧٠٤).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ٩٢؛ ح ٢٢٧٦)، صحيح مسلم (٧/ ١٩؛ ح ٢٢٠١).

(٤) زاد المعاد (٤/ ٣١٨).

مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[(١)].

هذا العهد والميثاق بين العبد وربه يتكرر في اليوم والليلة ما لا يقل عن سبع عشرة مرة، فهل يجمُل بمن هذا حاله أن ينكل أو ينكث، وهو يسأل الله دائما الثبات: اهدنا الصراط المستقيم؟!

سابعا: ومن مظاهر التعظيم أيضا، هيئات المصلي في صلاته، فمن ذلك:

١- **هيئة القيام**، الذي هو من أركان الصلاة، والذي لا يجوز إسقاطه عن مستطيع، وهو من القنوت لله، جاء في تفسير ابن جرير عند قوله تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨]، في معنىٰ قانتين: خافضى الأجنحة، غير عابثين ولا لاعبين. ثم ذكر عن مجاهد: فمن القنوت طول الرّكوع، وغضّ البصر، وخفض الجناح، والخشوع من رهبة اللّه، كان العلماء إذا قام أحدهم يصلّى يهاب الرّحمن أن يلتفت، أو أن يقلّب الحصىٰ، أو يعبث بشيء، أو يحدّث نفسه بشيء من أمر الدّنيا إلّا ناسيًا[(٢)].

فانظر إلىٰ هيئة القيام في الصلاة؛ وما فيه من الانكسار، وإظهار الحاجة والفقر، وقد أخفض المصلى جناحه، ورمىٰ ببصره إلىٰ الأرض عند موضع سجوده، ووضع يمناه علىٰ يسراه، واستقرت أركانه كلها نحو القبلة، لا كلام ولا التفاتة ولا حركة، فضلا عن الطعام والشراب؛ فإن ذلك كله من مبطلات الصلاة، مع المحافظة علىٰ تمام الطهارة. هذا ما يتعلق بظاهر البدن، والمطلوب مثله وأشد منه فيما يتعلق بالقلب، فخشوع البدن من آثار خشوع القلب وملزوماته: فقد رأىٰ سعيد بن المسيّب رأىٰ رجلًا يعبث بالحصىٰ، فقال: لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه[(٣)]. وفي رواية: يعبث بلحيته[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٩؛ ح ٣٩٥)، صحيح ابن خزيمة (١/ ٥٤٤؛ ح ٤٨٩).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٢٣٤).

(٣) سنن البيهقي (٢/ ٢٨٥؛ ح ٣٦٠٦).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٢/ ٢٦٦؛ ح ٣٣٠٨)، مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٤٨٢؛ ح ٦٨٥٤).

فالخشوع يعني: الخضوع والهدوء والسكون والاستكانة، وهو نوعان: ظاهر وباطن، والظاهر حظ البدن، ويسمىٰ الطمأنينة، وهي أحد أركان الصلاة، والباطن حظ القلب، وهو روح الصلاة، وكلاهما مطلوب في الصلاة، وإن كان الثاني لا يفسد عدمه الصلاة كالأول، وإنما ينقص من أجرها، وله أثر بالغ في تأثير الصلاة في سلوك المؤمن وأخلاقه.

وهذا الخشوع يعمّ الصلاة كلها؛ من تكبيرة الإحرام وإلىٰ التسليم، فلا شيء أكبر من الله يستحق الالتفات إليه، فيظل الله تعالىٰ معظّما في نفس المصلي أثناء الصلاة إلىٰ أن ينتهي منها، ثم ينداح هذا التعظيم إلىٰ ما بعد الصلاة؛ فلا يجمل بمصل عظّم الله في صلاته فترك المباحات من طعام وشراب وكلام أن يقترب من المحرمات والخبائث في الطعام والشراب والكلام وسائر الأحوال؛ قال تعالىٰ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت].

عن أبي هريرة قال :قيل: يا رسول الله، إنّ فلانًا يصلّي اللّيل كلّه، فإذا أصبح سرق، قال: «سَيَنْهَاهُ مَا تَقُوْلُ»(١).

فالخشوع من أعظم مظاهر التعظيم؛ فلا شيء من أعراض الدنيا يستحق الانشغال به حين يكون المؤمن بين يدي ربه في مناجاة ولذة لا يضايقها شيء من حطام الدنيا، وقد صدق القائل حين قال: نحن في سعادة لو علمت بها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف. وقول الآخر: إنه لتمر بى أوقات فأقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفى عيش طيب، وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إن في الدنيا لجنّة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها! قالوا: وما أطيب ما فيها قال: محبة الله، والأنس به، والشّوق إلىٰ لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه(٢).

وربما انهدم جانب المسجد ولا يلتفت إليه الخاشع في صلاته، من شدة حضور قلبه واشتغاله بما هو فيه من المناجاة عما يحيط به من الأحداث. والناس في ذلك مراتب، بحسب ما يقوم في القلب من التعظيم والرهبة، والقلب ملك الجوارح والمتحكم فيها. فإذا طاب الملك طابت جنوده.

---

(١) صحيح ابن حبان (٦/ ٣٠٠؛ ح ٢٥٦٠)، مسند البزار (١٦/ ١٣٠؛ ح ٩٢١٧)، مشكل الآثار (٥/ ٣٠٠؛ ح ٢٠٥٦).

(٢) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٥٤)، ومفتاح دار السعادة (١/ ٣٦).

٢- الرُّكوع: فمن مظاهر التعظيم للرب تعالىٰ الركوع، هذا الانحاء الذي لا يكون لأحد تقربا وتذللا إلا لله الخالق العظيم، وقد ذكر في القرآن الكريم كثيرا في صفة المؤمنين، وهو هيئة للتعظيم والتقدير خاصة، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**أَمَّا الرُّكوع فعظِّموا فيه الرَّبَّ**»(١). فكان من أذكار الرّكوع: سبحان ربي العظيم(٢)، وسبوح قدوس رب الملائكة والرّوح(٣).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم شرع له بأن يخضع للمعبود سبحانه بالركوع خضوعًا لعظمة ربه، واستكانة لهيبته وتذللا لعزته. فثناء العبد علىٰ ربه في هذا الركن؛ هو أن يحني له صلبه، ويضع له قامته، وينكس له رأسه، ويحني له ظهره، ويكبره معظمًا له، ناطقًا بتسبيحه، المقترن بتعظيمه. فاجتمع له خضوع القلب، وخضوع الجوارح، وخضوع القول علىٰ أتم الأحوال، ويجتمع له في هذا الركن من الخضوع والتواضع والتعظيم والذكر ما يفرق به بين الخضوع لربه، والخضوع للعبيد بعضهم لبعض، فإنّ الخضوع وصف العبد، والعظمة وصف الرب. وتمام عبودية الركوع أن يتصاغر الراكع، ويتضاءل لربه، بحيث يمحو تصاغره لربه من قلبه كلّ تعظيم فيه لنفسه، ولخلقه ويثبت مكانه تعظيمه ربه وحده لا شريك له. إذا عظّم القلب الربّ خرج تعظيم الخلق، وكلما استولىٰ علىٰ قلبه تعظيم الربّ، وقوىٰ خرج منه تعظيم الخلق، وازداد تصاغره هو عند نفسه فالركوع للقلب بالذات، والقصد والجوارح بالتبع والتكملة»(٤)

٣- هيئة السجود: وهو أشد من الركوع وأعظم منه، حيث يكون العبد أكثر قربا من ربه الخالق العظيم(٥)، والعبد في حال من التواضع والانكسار وإظهار الذل والحاجة، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**وأَمَّا السُّجُودُ، فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاء، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُم**»(٦). فكلّما تواضع العبد لربِّه رفعه الرب تعالىٰ(٧).

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٤٨؛ ح ٤٧٩).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٨٦؛ ح ٧٧٢).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ٥١؛ ح ٤٨٧).

(٤) أسرار الصلاة لابن قيم الجوزية (ص ٥٥).

(٥) لحديث: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**». صحيح مسلم (٢/ ٤٩؛ ح ٤٨٢).

(٦) صحيح مسلم (٢/ ٤٨؛ ح ٤٧٩)، وصحيح ابن حبان (٥/ ٢٢٢؛ ح ١٨٩٦).

(٧) لحديث: «**مَنْ تَوَاضَعَ لِلهِ دَرَجَةً يَرْفَعْهُ اللهُ دَرَجَةً، حَتَّىٰ يَجْعَلَهُ فِي أَعْلَىٰ عِلِّيِّينَ، وَمَنْ يَتَكَبَّرْ عَلَىٰ اللهِ دَرَجَةً يَضَعْهُ اللهُ دَرَجَةً حَتَّىٰ يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ**

=

فأكرم عضو ظاهري لدىٰ الإنسان هو الوجه، ولهذا تجد صاحبه أكثر عناية به، فيضعه العبد علىٰ الأرض؛ لا ينظر إلا إلىٰ الأرض، فينسلخ من كبريائه الساذج لكبرياء الله الحق، وهو في هذه الحال يقول: سبحان ربي الأعلىٰ.[١] سبوح قدوس رب الملائكة والروح.[٢] ويدعو ربه من خيري الدنيا والآخرة، فيكون أقرب إلىٰ القبول والاستجابة، لا سيما إذا وافق انكسار البدن انكسار من القلب.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم شرع له أن يكبّر ويدنو ويخرّ ساجدا، ويعطي في سجوده كل عضو من أعضائه حظّه من العبودية، فيضع ناصيته بالأرض بين يدي ربه، مسندة راغما له أنفه، خاضعا له قلبه، ويضع أشرف ما فيه -وهو وجهه- بالأرض ولاسيما وجه قلبه مع وجهه الظاهر، ساجدا علىٰ الأرض معفّرًا له وجهه وأشرف ما فيه بين يدي سيّده، راغمًا أنفه، خاضعًا له قلبه وجوارحه، متذلّلًا لعظمة ربه، خاضعًا لعزّته، منيبًا إليه، مستكينًا ذلًا وخضوعًا وانكسارًا، قد صارت أعاليه ملويةً لأسافله. وقد طابق قلبه في ذلك حال جسده، فسجد القلب للرب كما سجد الجسد بين يدي الله، وقد سجد معه أنفه ووجهه، ويداه وركبتاه، ورجلاه فهذا العبد هو القريب المقرّب فهو أقرب فهو ما يكون من ربه وهو ساجد. وشرع له أن يقلّ فخذيه عن ساقيه، وبطنه عن فخذيه وعضديه عن جنبيه، ليأخذ كل جزء منه حظّه من الخضوع لا يحمل بعضه بعضًا. فأحر به في هذه الحال أن يكون أقرب إلىٰ ربه منه في غيرها من الأحوال كلّها، كما قال النبي ﷺ: **أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُو سَاجِدٌ**»[٣].

٤- **هيئة الجلوس في مواضع الصلاة كلها**؛ سواء كان الجلوس مفترشا بين السجدتين، أو الجلوس الوسط قبل القيام للركعة الثالثة، أو متوركا في نهاية الصلاة ذات التشهدين، هذه الهيئة من الجلوس تدل علىٰ التواضع والانكسار والتذلل والاضمحلال بين يدي العزيز الجبار، ولهذا شرع في بعضه الاستغفار وتكراره؛ رب اغفر لي رب اغفر لي رب اغفر لي[٤].

عَلَيْهِ بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ، لَخَرَجَ مَا غَيَّبَهُ لِلنَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ». صحيح ابن حبان (١٢/ ٤٩١؛ ح ٥٦٧٨)، والمستدرك (٤/ ٣١٤؛ ح ٧٩٧٢)، وسنن ابن ماجه (٥/ ٢٧٤؛ ح ٤١٧٦).

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٨٦؛ ح ٧٧٢)، صحيح ابن خزيمة ١/ ٥٨٧؛ ح ٥٤٢).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ٥١؛ ح ٤٨٧).

(٣) كتاب أسرار الصلاة (ص ٥٧-٥٨)، والحديث تقدم تخريجه.

(٤) لحديث: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُودِ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي**». صحيح مسلم (٢/ ١٨٦؛ ح ٧٧٢)، والمستدرك (١/ ٢٧١؛ ح ١٠٠٨).

وفي بعضه سؤال الله المغفرة والرحمة والهداية والمعافاة والرزق[١]. وبهذه الخمس تقوم حياة البدن والقلب، وتتحقق مطالب الدنيا والآخرة.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالعبد في هذا القعود يتمثّل جاثيا بين يدي ربه، ملقيا نفسه بين يديه، معتذرًا إليه مما جناه، راغبًا إليه أن يغفر له ويرحمه، مستعديًا له علىٰ نفسه الأمّارة بالسوء. فمثّل أيها المصلي نفسك فيها بمنزلة غريم عليه حق، وأنت كفيل به، والغريم مماطل مخادع، وأنت مطلوب بالكفالة، والغريم مطلوب بالحق، فأنت تستعدي عليه حتىٰ تستخرج ما عليه من الحق؛ لتتخلص من المطالبة، والقلب شريك النفس في الخير والشر، والثواب والعقاب، والحمد والذم»[٢].

والمصلِّي في هذه الحال يرسل التّحيات لله الطيبات الزّاكيات، ويسلِّم علىٰ النبي الكريم، ويسلِّم علىٰ عباد الله الصَّالحين، ويختم صلاته بكلمة التوحيد وشهادة الحقّ، لتكون آخر عهده بالصلاة كما افتتح بها في أذانه وإقامته.

وفي خروجه من الصّلاة بالتّسليم يمنة ويسرة، كأنما عاد إلىٰ دنيا الناس، من هذا المعراج الرُّوحي العظيم، مُزوَّدًا بطهارة ونقاء، وبعزم وإباء، وعهد وميثاق؛ لتكون الصلاة إلىٰ الصلاة كفارة لما بينهما ۞

---

(١) لحديث: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي**». الأحاديث المختارة للمقدسي (١٠/ ١٢٩؛ ح ١٣٠)، والمستدرك (١/ ٢٦٢؛ ح ٩٧٠)، وسنن أبي داود (١/ ٣١٦؛ ح ٨٥٠).

(٢) أسرار الصلاة (ص ٦٠-٦١).

المطلب الثالث: أثر الزكاة في تعظيم الله

الزكاة دفع مال مخصوص لإنسان مخصوص في وقت مخصوص، وهي عبادة مالية تجب في مال المستطيع من المسلمين، هذا هو القدر الواجب، وهناك قدر مستحب قد يسمىٰ صدقة، وهو أمر واسع ومفتوح يتنافس فيه المتنافسون، ويشمل المستفيدين من مسلمين وغيرهم من غير الحربيين، والزكاة والصدقة تصلان أهل الحاجة والعوز، وقد يكونون من غير أقارب المزكي[1]، ولا تربطه صلة بهم، ولا مصلحة له عندهم، ولا يرجو منهم جزاء ولا شكورا. ولا يفعل ذلك إلا من كان لله معظما، وفي وعده واثقا، ولثوابه راجيا.

والزكاة ركن من إركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة ورديفتها، كثيرا ما تذكران معا في آيات القرآن الكريم، وقد قاتل الصديق الأكبر والخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه علىٰ منعها، وقال: **والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصّلاة والزّكاة، فإنّ الزّكاة حقّ المال، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدّونها إلىٰ رسول الله ﷺ لقاتلتهم علىٰ منعها**[2]، وهي أول حرب يشهدها التاريخ من أجل حقوق الفقراء.

وعلىٰ الرغم من قلة نسبتها من المال، إلا أنها تحارب الشح في نفس صاحبها، وتحرره من البخل، الذي يذل رقاب الكثيرين من الناس، فعن عبد الله بن عمرو عن النّبيّ ﷺ قال: «**إيّاكم والشّحّ، فإنّه أهلك من قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وبالبخل فبخلوا، وبالفجور ففجروا**»[3].

فإن من حكمة الزكاة أنها طهارة وتزكية، قال تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة].

والطهارة تشمل طهارة المال وطهارة صاحب المال وطهارة الفقير الآخذ له، أما طهارة المال فتعني طهارته من حق الله الذي يدفع لمستحقيه، فإن المال الذي لا يزكىٰ مال خبيث مهدد بالفناء ونزع البركة عنه، وأما طهارة صاحبها فمن البخل والشح ونحوهما، ومن زكىٰ ماله طاعة لله لا يجمل به أن يأكل أموال الناس بالباطل بنحو سرقة أو غش أو ربا أو غير ذلك، وأما طهارة الفقير فطهارة نفسه من الحقد والحسد لصاحب المال، وطهارة يده أن تمتد إلىٰ مال الآخرين.

---

(١) الزكاة لا تجوز علىٰ أصول المزكي وفروعه، وزوجته.

(٢) صحيح البخاري (٢/ ١٠٥؛ ح ١٣٩٩)، وصحيح مسلم (١/ ٣٨؛ ح ٢٠).

(٣) صحيح ابن حبان (١١/ ٢٠٥؛ ح ٤٨٦٣)، وسنن الدارمي (٣/ ١٦٣٦؛ ح ٢٥٥٨).

ومن مظاهر تعظيم الله تعالى في هذه الشعيرة:

أوّلًا: أن حقيقة الزكاة مصادمة لطبيعة الإنسان في حبه للمال، لا سيما ماله الخاص، فالملكية الخاصة مما جبل الله الناس عليها، قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران]، ولهذا قال بعدها: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران].

ونفس ابن آدم تميل إلىٰ الشح بما يملك أكثر من إنفاقه والتخلي عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، فالشُّحُّ ملازمٌ للنّفوس البشرية حتّىٰ كأنّه حاضر لديها ملازم لها[(١)].

فالزكاة تدريب عملي للمؤمن لتهذيب هذه الغريزة الجبلية؛ لا لكي يتخلص منها، ويتنكر لها، ولكن لكي يتحكم في انفعالاتها وتأثيراتها، فلا يصبح المال محركا له مسيطرا علىٰ إراداته، بل يظل المال معونة، ووسيلة لقضاء حاجاته وحاجات الآخرين، مشعرا له بنعمة الله عليه ليكون من الشاكرين، وفي قصة قارون عظة وعبرة.

ولا يفعل ذلك طوعا ورغبة إلا من كان لله معظما وبأحكامه متقيدا، فهو يطيع الله تعالىٰ في توزيع الأموال، حتىٰ لا تكون دولة بين الأغنياء فقط، وبهذا يكون متقيا للشح والبخل، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]، ويكون راغما للشيطان الذي يخوفه الفقر، راغبا في فضل الله ومغفرته، قال تعالىٰ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة].

فيكون المؤمن متحكما في المال مسيطرا علىٰ مشاعر الشح والبخل. ولهذا كانت الصدقة برهانا ودليلا علىٰ صحة إيمان صاحبها، والصدقة من الصدق، قال ﷺ: «**الصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ**»[(٢)].

يقول أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال، فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس علىٰ مفارقته حتىٰ يصير ذلك اعتيادا، فالزكاة بهذا المعنىٰ طُهرة، أي: تُطَهِّر صاحبها عن خبث البخل المهلك، وإنّما طهارته بقدر بذله، وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلىٰ الله تعالىٰ»[(٣)].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٤/ ٢٦٨).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (ح ٨٩١١)، **قال في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣٦)**: «إسناده جيد».

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٢١٤).

فالزكاة تطهر النفس من هذه الأمراض، وتزكيها بالأخلاق النبيلة، قال تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة].

ثانيا: الزكاة دليل علىٰ ثقة المؤمن في وعد الله بالإخلاف لهذا المال المنفق، بل والزيادة فيه بركةً وصونا، فالمنفق نقص ماله بالزكاة في نظر الناس، وفي نظر الحسابات المادية، أما عند المؤمن الواثق في وعد الله، فماله في زيادة وبركة وصون عن التلف، فقد قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ].

وفي الحديث أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**ما من يوم يصبح العباد فيه، إلّا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللّهمّ أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللّهمّ أعط ممسكًا تلفًا**»(١)، وقال ﷺ لبلال: «**أنفق بلال، ولا تخافنَّ من ذي العرش إقلالًا**»(٢)، وقال ﷺ: «**ما نقص مالٌ من صدقةٍ، فتصدّقوا**»(٣).

ولهذا كان الطريق الآمن للزّيادة في المال زكاته والتّصدق ببعضه، بخلاف الزّيادة الحرام عن طرق الرِّبا وأكل أموال النَّاس بالباطل: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم].

فالرِّبا لغةً: الزِّيادة، كما أن من معاني الزَّكاة أيضا: الزِّيادة والنَّماء، لكن فرقٌ بين الزِّيادتين، الأولىٰ تفسد المال وتمحقه، والثانية تربيه وتبارك فيه، قال تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ثالثا: علاقة الزكاة بالإيمان؛ فأصل الإيمان هو الإيمان بالله تعالىٰ وتعظيمه، والإيمان بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ وأفعاله الحكيمة وأنه من يستحق العبادة وحده. وكل تكليف شرعي يحتاج إلىٰ هذا الأصل الإيماني، ولهذا كانت التكاليف الشرعية في القرآن الكريم تبدأ بنداءات الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾. وكثيرا ما يذكر في القرآن الكريم الإنفاق وصفًا مميّزًا لأهل الإيمان، في مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ١١٥؛ ح ١٤٤٢)، صحيح مسلم (٣/ ٨٣؛ ح ١٠١٠).

(٢) مسند أبي يعلىٰ (١٠/ ٤٢٩؛ ح ٦٠٤٠)، والمطالب العالية لابن حجر (١٣/ ٢٧٣؛ ح ٣١٦٩).

(٣) مسند أحمد (١/ ٤١٧؛ ح ١٦٩٦)، ومسند أبي يعلىٰ (٢/ ١٥٩؛ ح ٨٤٩).

يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤].

أما الكافر فيتكبر عن الإنفاق، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس]. وأمّا المنافق فيتثاقل في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤]. أمّا المؤمن فينفق رغبة فيما عند الله، بل يسابق إلىٰ ذلك وينافس، طيبة بذلك نفسه، غير مباه ولا مؤذ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٩]. فالمؤمن يجود بالزكاة غنيمة، والمنافق تنتزع منه غرامة.

فشعيرة الزكاة فيها اختبار دقيق لتعلق العبد بربه وتعظيمه له ولأحكامه، فقد تقدم أن النفوس مجبولة علىٰ حب الدنيا ومباهجها، وفرق بين أن تكون هذه المباهج وسيلة لطاعة الله وشكره عليها، وأن تكون مقصودة لذاتها، وفي الحديث: «**تَعِسَ عبدُ الدِّينار والدِّرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعْطِي رضي، وإن لم يُعْطَ لم يرضَ**»(١).

وكما حدثنا القرآن عن شخصية قارون الذي بطر بالنِّعمة فأنسته المنعم، حدثنا أيضا عن شخصية سليمان عليه السلام الذي جمع بين النُّبوة والمُلك، فاستقام أمره، فقال لمَّا رأىٰ عرش ملكة سبأ بين يديه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

يقول أبو حامد الغَزَّاليُّ رحمه الله: «إن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقىٰ للموحد محبوب سوىٰ الواحد الفرد؛ فإن المحبة لا تقبل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الجدوىٰ، وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا، وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت، مع أن فيه لقاء المحبوب فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب، واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم ولذلك قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]؛ وذلك بالجهاد وهو مسامحة بالمهجة شوقًا إلىٰ لقاء الله عزّ وجلّ، والمسامحة بالمال أهون»(٢) ۞

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ٣٤؛ ح ٢٨٨٦).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢١٤).

المطلب الرابع: أثر الصّيام في تعظيم الله تعالى

الصّيام هو الإمساك عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر الصّادق إلىٰ مغيب الشمس بنيّة التعبد لله، وهو من العبادات العظيمة فرضها ونفلها، وقد يكون كفارة لبعض الأخطاء؛ وهو عبادة بدنية أساسها الترك والمنع، وهي سرّ بين العبد وربّه، ويعمل الصّيام علىٰ تقوية إرادة المؤمن أمام شهواته وحاجياته الفطرية، بحيثُ يمتلك القدرة -برغبة وعزم- علىٰ ترك بعض هذه الحاجيات، ليكون بعد ذلك أقدر علىٰ ترك الشهوات المحرمة والممارسات الخاطئة، وتلك هي الحكمة من هذه الشّعيرة العظيمة؛ زرع التقوىٰ في نفس المؤمن، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة]. والتقوىٰ هي الجهاز المناعي في قلب المؤمن، بمثابة الجهاز المناعي في بدنه، فهذا للمحافظة علىٰ قالب صحي سليم، وذاك للمحافظة علىٰ قلب إيماني قويم. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَولَ الزُّورِ والعَمَلَ بِهِ، فَلَيسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَه»[1].

وصيام رمضان دورة تدريبية تنموية مكثّفة تستمر ثلاثين يومًا، يتربَّىٰ فيه المؤمن علىٰ تقوية إرادته، وامتلاك زمام نفسه، ليكون أقدر علىٰ ضبط نفسه سائر العام، فرمضان إلىٰ رمضان كفارة لما بينهما[2].

فمن كان حاله قبل رمضان وبعده سواء في فعل المعاصي واقتراف الموبقات، لم يدرك الحكمة من الصّيام، ولم يحقّق الغاية منه، وكان الصّيام في حقّه تعذيبا للنّفس بتجويعها[3]، يغالب ذلك بالنوم أو بالاشتغال بالملهيات، وكذلك لم يدرك الحكمة من الصيام من حرص علىٰ صلاة التراويح وفرط في صلاة الفجر، ومن امتنع عن الطعام والشراب المباح وأفطر علىٰ الغيبة والنميمة ونحوهما من المحرمات.

ولهذا كان الناس في استقبال رمضان علىٰ نوعين: نوع يستقبله مستثقلًا له؛ لأنه يحرمه من شهواته المباحة. ونوعٌ يستقبله فرِحًا به؛ لأنه يفتح له أبواب الخير ودروب الثواب.

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ٢٦؛ ح ١٩٠٣).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٦/ ٣٨ ح: ٥٤٤٥)، ومسند الإمام أحمد (٣/ ١٥٠٦ ح: ٧٢٥٠).

(٣) عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ: «كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الظَّمَأُ وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ». صحيح ابن خزيمة (٣/ ٤٢٠؛ ح ١٩٩٧)، وسنن النسائي (٣/ ٣٤٨؛ ح ٣٢٣٦).

ومما يتميز به شهر رمضان اجتماع عدد من العبادات فيه؛ من صلاة وصدقة وصلة رحم وقصد للبيت الحرام بعمرة[١]، وقراءة القرآن فهو شهر القرآن، وكثرة الذكر ونحوها من العبادات.

ومن مظاهر تعظيم الله تعالى في شعيرة الصوم:

أوّلًا: الصّيام عبادة تَرْكِية ليس فيها فعل معين، بل أساسها التَّرك، وهو ترك شهوتَي البطن والفرج، وهذا أمر بين العبد وربه، عبادة سرية محضة، يمكن للعبد أن يفطر سرا، ولو بالنية، ولا أحد يعلمه ولو من أقرب الناس إليه، فالصائم يترك شهواته طاعة لربه، معظما لدينه، ولهذا جاء في الحديث: «**كلّ عمل ابن آدم يضاعف؛ الحسنة عشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، قال الله عزّ وجلّ: إلّا الصّوم؛ فإنّه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي**»[٢].

فهناك من يترك هذه الشهوات طلبا لصحة بدنه، أو لعدم وجدانها أو عدم قدرته، أو استجابة لأمر طبي، أما الصائم فيتركها استجابة لأمر ربه، وطلبا لرضاه، ولما يترتب علىٰ ذلك من الثواب.

ففي ذلك من تعظيم مراقبة الله تعالىٰ ما فيه، فليس علىٰ الصائم رقيب إلا ربه، ولهذا يتحرىٰ الصائم وقت الإمساك، ووقت الإفطار، ويتحرز عن مفسدات الصوم بكل دقة، فإن الله العظيم لا تخفىٰ عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فالصائم تحت رقابة الله تعالىٰ، لا رقابة الناس، وهذه حقيقة التقوىٰ المذكورة في آية الصيام، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾[البقرة].

وحينما يفرح الصائم بفطره، ليس لمجرد أن أذن له في الممنوع، ولكن أيضا يفرح بأن الله تعالىٰ أعانه علىٰ إتمام يومه هذا صوما وعبادة، فيفرح فرح الشاكرين الحامدين، والفرحة الكبرىٰ حين لقاء ربه وإدخاله جنة الفردوس من باب الريان[٣].

الصيام عبادة الإخلاص، فالمؤمن يقصد بصومه وجه الله، فلا مدخل للرياء في الصيام، والإخلاص أحد شرطي صحة قبول العبادات، بل هو شرطها الأعظم.

---

(١) قال ﷺ: «فَإِنَّ عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً مَعِي». صحيح البخاري (٣/ ٣؛ ح ١٧٨٢)، وصحيح مسلم (٤/ ٦١؛ ح ١٢٥٦).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ٢٤؛ ح ١٨٩٤)، واللفظ في السنن الكبرىٰ للبيهقي (٤/ ٢٧٣؛ ح ٨٤٢٢).

(٣) قال ﷺ: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ». صحيح البخاري (٣/ ٢٦؛ ح ١٩٠٤)، وصحيح مسلم (٣/ ١٥٧؛ ح ١١٥١).

ثانيا: تعزيز ثقة المؤمن في ربه، أنه لا يريد تعذيبه بالجوع والعطش، قال تعالىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، إنما يريد تزكيته بالتقوىٰ، وتحريره من وطأة الشهوة، وبذلك يكون عبدًا لله لا عبدا لشهواته، فكم من الناس من لا يعرف من الحياة الدنيا إلا الملذات والشهوات، ويزعم أنه لا يستطيع الانفكاك منها، وقد يسوق لنفسه المبررات، فهي التي تقوده وتقيده، وتسيطر علىٰ تفكيره وإراداته، فهو والبهيمة سواء، فالحيوان إنما تحركه غرائزه وتتحكم فيه شهواته، وليس من لوم عليه؛ فلهذا خلق، أما المؤمن فقد خلق لعبادة الله الاختيارية، فكان أرفع شأنا، قال تعالىٰ عن الذين كفروا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد]، فبالصوم يتربىٰ المؤمن علىٰ درجة فوق درجة البهيمية، أقرب إلىٰ درجة الملائكية. وذلك في أيام معدودات، يكتشف فيها قدراته الهائلة، وصبره الجميل عن الشهوات المباحة فضلا عن المحرمة، مما يكون لها الأثر البالغ في سائر عامه، فرمضان لرمضان كفارة لما بينهما.

ثالثًا: الصّيام في ظاهره مصادمة للحاجة الفطرية والغريزية لشهوتي البطن والفرج، لكن ليس في شرائع الإسلام تنكر لمثل هذه الحاجات والضرورات، فقد أوجدها الله تعالىٰ للمحافظة علىٰ بقاء النوع الإنساني، ولهذا نهي الإسلام عن صيام الوصال، وعن صيام الدهر، ورفع الحرج عن المريض وعن المسافر بأن أباح لهما الفطر، ونهىٰ عن الرهبنة (ترك الزواج) وعن الاختصاء[1]، كلّ ذلك لتبقىٰ هذه الفطرة الغريزية فاعلة ومحققة للغرض من وجودها، لكن في شرائع الإسلام ما يربي علىٰ التحكم فيها، والسيطرة عليها، لتكون في مسارها الصحيح، فتكون منقادة لا قائدة، متزنة لا متفلتة. فالصيام في حقيقته ليس مصادمًا لهذه الفطرة الغريزية، وإنما هو مُهَذِّبٌ لها، يجعل من المؤمن سيِّدًا عليها، متحكمًا فيها، وبيان بالتجربة العملية أنّ الإيمان أقوىٰ من الغرائز الفطرية؛ فالصّلاة أقوىٰ من سلطان النّوم، والزّكاة أقوىٰ سلطان المال، والصّيام أقوىٰ من سلطان الشهوة، والحجّ أقوىٰ من سلطان الوطن، ثم الجهاد أقوىٰ من سلطان النفس وحب الذات، وبهذا يكون المؤمن عبدا لله وليس عبدا للأشياء ولو كانت الحاجة إليها فطرية ضرورية.

---

(١) والصوم هو الاختصاء الطبيعي، الذي يهذب الغريزة ولا يلغيها، قال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ». صحيح البخاري (٣/ ٢٦؛ ح ٥٠٦٥).

هذا الصمود أمام الحاجات الفطرية يحتاج إلىٰ مؤمن قوي، يثق في أحكام خالقه، ويطمئن لمراده به، ومع ذلك فالله تعالىٰ يذكر لنا ـ نحن المسلمين ـ أن شرعة الصيام سنة من قبلنا من المؤمنين، فلسنا أو لمن يخوض غمارها؛ مما يهون معه التكليف، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة].

فالصوم يكشف للعبد قدراته الكبيرة، فقدرته علىٰ الصبر عن شهواته المباحة، دليل علىٰ قدرته علىٰ ترك شهواته المحرمة، فهو يملك القدرة إذا امتلك الإرادة، ولهذا كل من يزعم أنه لا يستطيع ترك التدخين، فالصيام تجربة عملية لاكتشاف استطاعته وقدرته، فقط يحتاج إلىٰ قوة الإرادة والعزيمة.

رابعًا: الصّوم من بين العبادات الأخرىٰ نسبه الله إلىٰ نفسه كما في الحديث القدسي: «**كلّ عمل ابن آدم له إلّا الصّوم، فإنّه لي وأنا أجزي به**»[1]، والشيء إذا نسبه الله إلىٰ نفسه، فهذا دليل تعظيم له، وعناية به، ولهذا تميز الصوم بكثير من الخصوصيات، من ذلك: نزول القرآن الذي هو كلام الله في شهر الصوم، وخلوف فم الصائم وهي رائحة مستكرهة أطيب عند الله من ريح المسك، وفي شهر رمضان تفتح أبواب الجنة، ومن أبواب الجنة باب لا يدخل منه إلا الصائمون وهو باب الريان، وفيه الوعد بالعتق من النار، وفيه تصفد الشياطين مردة الجن، فلا يخلصون إلىٰ ما كانوا يخلصون إليه في غير رمضان[2]، وفيه تضاعف الحسنات أضعافا مضاعفة، وهناك فرحة الصائم عند لقاء ربه، وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. فإذا كان هذا الشهر بهذه الحفاوة عند ربه تعظيما وتكريما، فأولىٰ بالمؤمن المحب لربه المعظم له، أن يقابل التعظيم بالتعظيم، والحفاوة بالحفاوة، وهذا ما يشاهد من حال المسلمين في رمضان؛ تكتظ بهم المساجد، ويتنافسون في ختمات القرآن، وتكثر صدقاتهم، وتحسن أخلاقهم وصلاتهم الاجتماعية؛ لكن كثيرا منهم يكتفون بذلك في رمضان، لأنهم لم تكتمل معرفتهم بحكمة تشريع رمضان ۞

---

(١) صحيح البخاري (٧/ ١٦٤؛ ح ٥٩٢٧) وصحيح مسلم (٣/ ١٥٧؛ ح ١١٥١).

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ**». صحيح البخاري (٣/ ٢٥؛ ح ١٨٩٨).

المطلب الخامس: أثر الحج في تعظيم الله

الحج ركن الإسلام الخامس، وهو من العبادات العظيمة التي جمعت بين الجهد البدني والجهد المالي، وجمعت بين شتىٰ العبادات: الصلاة والإنفاق والصيام والذكر من تكبير وتهليل وإعلان بالتوحيد ونفي الشريك عن الله..

ومظاهر التعظيم لله في هذه العبادة تتجلى في عدّة مواقف من أهمها:

أوّلًا: إنّ مكة -لولا تعظيم الله لها- لا تشكل منطقة جذب سياحي، فليس فيها ما يجذب أهل الدنيا والدعة والمتعة؛ حتىٰ أن كفارها قالوا للنبي ﷺ تعجيزًا له، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء].

وجاء في تفسيرها أنهم قالوا: يا محمد، قد علمت أنّه ليس أحد من النّاس أضيق منّا بلادًا، ولا أقلّ مالًا، ولا أشدّ عيشًا منّا، فاسأل لنا ربّك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسَيِّر عنّا هذه الجبال التي قد ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجُر فيها أنهارًا كأنهار الشّام والعراق. فكان الجواب الإلهي: ، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، فبشريته عاجزة عن فعل ما يطلبون، ووظيفته الرِّسالية تمنعه من طلب ذلك، فقد قال لهم: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بُعِثْتُ إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا[1].

هكذا كانت مكة -ولا تزال- ودايًا غير ذي زرع، لا يقصدها إلّا من تعلَّق قلبه بها طاعة لله، فمن عظَّمها بتعظيم الله لها فهو المفلح، ومن يرد فيها إلحادًا وظلمًا فهو الخاسر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

فقلوب أهل الإيمان تهواها طبعًا وديانة، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ نظر إلىٰ مكّة فقال: «إنّك لأحبّ أرض الله إلىٰ الله ولولا أنّ قومي أخرجوني منك ما خرجت»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينةَ وُعِك أبو بكر وبلالٌ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمّىٰ يقول:

كلّ امرئ مصبّح في أهله ... والموت أدنىٰ من شراك نعله

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١١٨) وما بعدها، وتفسير البغوي (٥/ ١٢٩).

(٢) مسند أبي يعلىٰ (٥/ ٦٩؛ ح ٢٦٦٢)، والمطالب العالية (١٥/ ٢٢٠؛ ح ٣٧١٦).

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمّىٰ يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنّة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قال: اللّهمّ العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميّة بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلىٰ أرض الوباء. ثمّ قال رسول الله ﷺ: «**اللّهمّ حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكّة أو أشدّ، اللّهمّ بارك لنا في صاعنا وفي مدّنا، وصحّحها لنا، وانقل حمّاها إلىٰ الجحفة**»، قالت: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، قالت: فكان بطحان يجري نجلًا، تعني ماءً آجنًا[1].

ثانيًا: مفهوم الحجّ نفسه، وهو أن يترك المسلم بلده ووظيفته وأهله وولده وماله وعوائده، ويتجرد من ذلك كله، حتىٰ من ثيابه المعتادة من مخيط ومحيط، وغير ذلك من مظاهر الرفاهية، ويقصد واديا غير ذي زرع، مع عناء السفر، وشدة الزحام، والتعرض للمخاطر، ملبيا نداء الله تعالىٰ: «**أيّها النّاس، قد فرض الله عليكم الحجّ؛ فحجّوا**»[2]، لا يفعل ذلك إلا من كان لله معظِّما، ولشرعه مراعيا، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[الحج].

ثالثًا: كغيره من العبادات فالحج يشترط فيها شرطان: الإخلاص والمتابعة، فدليل الشرط الأول، قال تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٦]. ودليل الثاني: قوله ﷺ: «**خُذُوا عنّي مناسككم ؛ لعلّي لا أراكُم بعدَ عامي هذا**»[3].

فلا قبول للحجّ عند الله إلا بشرط الإخلاص والمتابعة، **والإخلاص**: هو تعظيم الله تعالىٰ بقصد وجهه الكريم بهذه العبادة، **والمتابعة**: تعظيم شرع الله الذي بلغه رسول الله ﷺ. ومن غير مراعاة هذين الشرطين تتحول العبادة إلىٰ مجرد عادة ثقيلة علىٰ النفس، مضيعة للأوقات والأموال. وهذا فرق ما بين المؤمن والمنافق، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[النساء]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾[التوبة].

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ٢٣؛ ح ١٨٨٩)، صحيح مسلم (٤/ ١١٨؛ ح ١٣٧٦).

(٢) صحيح البخاري (٩/ ٩٤؛ ح ٧٢٨٨)، وصحيح مسلم (٤/ ١٠٢؛ ح ١٣٣٧).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ١٤٠؛ ح ١٥٥٧)، وصحيح مسلم (٤/ ٣٥؛ ح ١٢١٣).

فالمنافق لا يتذوق طعم العبادة، بل هي تكليف شاق يسعىٰ للتخلص منه، وإن اضطر لفعله فمراءاة وسمعة.

رابعًا: يشترط لهذه العبادة أن تكون من النفقة الطيبة الحلال؛ فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، فمن تعظيم الله تعالىٰ أن لا يقدم له المال الخبيث، فعن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**من أمّ هذا البيت من الكسب الحرام شخص في غير طاعة الله، فإذا أهلّ ووضع رجله في الغرز أو الرّكاب، وانبعثت به راحلته، قال: لبّيك اللّهمّ لبّيك= ناداه مناد من السّماء: لا لبّيك ولا سعديك، كسبك حرام، وزادك حرام، وراحلتك حرام، فارجع مأزورًا غير مأجور، وأبشر بما يسوؤك. وإذا خرج الرّجل حاجًّا بمال حلال، ووضع رجله في الرّكاب وانبعثت به راحلته، قال: لبّيك اللّهمّ لبّيك= ناداه مناد من السّماء: لبّيك وسعديك قد أجبتك، راحلتك حلال، وثيابك حلال، وزادك حلال، فارجع مأجورًا غير مأزور، وأبشر بما يسرّك**»[1]

خامسًا: الإحرام ولباسه، فيه من التعظيم لله تعالىٰ ما لا يخفىٰ، فلا ينبغي تجاوز المواقيت المكانية التي تحيط بمكة من غير إحرام لمن أراد الحج أو العمرة، فيقبل المسلم علىٰ الله بقطعتين من القماش؛ رداء وإزار، متجردا من ثيابه المعتادة، بل من شعر إبطيه وداخلة إزاره، ومن زوائد أظفاره، حاسرا رأسه، كاشفا أعقاب قدميه، فإنه بعد عقد نية النسك لا يحل له طيب ولا تغطية رأس ولا أخذ من شعر، ولا زواج ولا خطبة، ولا مباشرة لامرأته بجماع ونحوه، إضافة إلىٰ تحريم الصيد البري: أن يصطاده أو يصاد له، ليس عليه في ذلك كله رقيب إلا الله الذي يعلم السر وأخفىٰ، وكل الذي حرّم عليه بسبب الإحرام كان حلالا له قبل ذلك، بل غالبه من سنن الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

إنّ الإحرام يعلّم صاحبه كيف يتحكم في المباح من شهواته وعاداته، كيف يترك ذلك طاعة لله، كيف يغير أسلوب حياته، ولا يخضع للتطبع الدائم(الروتين)؛ ليكون أقوىٰ بعد ذلك علىٰ اجتناب الحرام وترك الخبائث، يعلّمه كيف يكون عبدا للذي خلقه طائعا لولي نعمته، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

سادسًا: من مظاهر التعظيم لله في شعيرة الحج، ما يتخلله من ذكره تعالىٰ وتعظيمه، فإن من أعظم مقاصد الحج إقامة ذكر الله، وإشهاره علىٰ مستوىٰ عالمي يجتمع فيه من يستطيع من المسلمين من كل أنحاء الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٥/ ٢٢١؛ ح ٨٦٣٨)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٥١؛ ح ٥٢٢٨).

ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج]، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

والنبي ﷺ لخص الحجّ في الثَّجّ والعجِّ، فقال ﷺ: «**أفضل الحجّ العجّ والثّجّ**»، فأمّا العجّ: فالتّلبية، وأمّا الثّجّ: فنحر البدن[١]، وقال ﷺ: «**إنّما جعل الطّواف بالبيت وبين الصّفا والمروة ورمي الجمار؛ لإقامة ذكر الله تعالىٰ**»[٢].

ومن ذلك التعظيم: التلبية والتهليل والتكبير التي تكثر في مشاعر الحج ومواقفه المتنوعة:

فالتلبية تتميز بها شعيرة الحج دون غيرها من الشعائر الإسلامية، وصيغتها: لبّيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنّعمة لك والملك، لا شريك لك.[٣] وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يزيد فيها: لبّيك لبّيك وسعديك، والخير بيديك، لبّيك والرّغباء إليك، والعمل[٤].

فهذه ألفاظ تعظم الله تعالىٰ، وتعلي من شأن التوحيد ونفي الشريك عن الله تعالىٰ، مع الثناء عليه بالحمد وإفراده بالملك.

والتلبية تعني: الإجابة، وهي دليل علىٰ الاستسلام لله تعالىٰ، والانقياد له، ومحبته ورجائه والخوف منه، وهذه التلبية تكرر كثيرا وبصوت مرتفع ترتج له جنبات المشاعر المقدسة، تبدأ من بداية الدخول في نسك الإحرام ولا تتوقف إلا عند رمي جمرة العقبة يوم العيد.

قال البخاريُّ رحمه الله: باب التّكبير أيّام منًى وإذا غدا إلىٰ عرفة. وكان عمر رضي الله عنه يكبّر في قبّته بمنًى، فيسمعه أهل المسجد، فيكبّرون، ويكبّر أهل الأسواق حتّىٰ ترتجّ منًى تكبيرًا. وكان ابن عمر يكبّر بمنًى تلك الأيّام، وخلف الصّلوات، وعلىٰ فراشه، وفي فسطاطه، ومجلسه، وممشاه تلك الأيّام جميعًا. وكانت ميمونة تكبّر يوم النَّحر وكنّ النّساء يكبّرن خلف أبان بن عثمان وعمر بن عبد العزيز ليالي التّشريق مع الرّجال في المسجد. حدّثنا أبو نعيم، قال: حدّثنا مالك بن أنس، قال: حدّثني محمّد بن أبي بكر الثّقفيّ، قال: سألتُ أنسًا ونحن غاديان من منًى إلىٰ

---

(١) مسند أبي يعلىٰ (٩/ ١٩؛ ح ٥٠٨٦)، والمطالب العالية (٧/ ٧١؛ ح ١٢٧٣/ ٢).

(٢) صحيح ابن خزيمة (٤/ ٣٨٤؛ ح ٢٧٣٨)، والمستدرك (١/ ٤٥٩؛ ح ١٦٩١).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ١٣٧؛ ح ١٥٤٠)، وصحيح مسلم (٤/ ٧؛ ح ١١٨٤).

(٤) صحيح مسلم (٤/ ٧؛ ح ١١٨٤)، موطأ مالك (٣/ ٤٧٩؛ ح ١١٩٢/ ٣٤٦).

عرفات عن التّلبية، كيف كنتم تصنعون مع النّبيّ ﷺ؟ قال: كان يُلبّي الملبّي لا يُنْكر عليه، ويكبّر المكبّر فلا يُنْكَر عليه(١).

ومثل التلبية: تكبير الله وتعظيمه وتمجيده، وذلك عند:

الحجر الأسود: عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: طاف النّبيّ ﷺ بالبيت علىٰ بعير، كلّما أتىٰ الرّكن أشار إليه بشيء كان عنده وكبّر(٢).

وعند الصعود علىٰ الصفا وعلىٰ المروة: فكان من هديه ﷺ: إذا دنا من الصّفا، قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصّفا، فرقي عليه، حتّىٰ رأىٰ البيت، فاستقبل القبلة، فوحّد الله، وكبّره، وقال: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كلّ شيء قدير، لا إله إلّا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثمّ دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرّات، ثمّ نزل إلىٰ المروة، حتّىٰ إذا انصبّت قدماه في بطن الوادي سعىٰ، حتّىٰ إذا صعدتا مشىٰ، حتّىٰ أتىٰ المروة ففعل علىٰ المروة كما فعل علىٰ الصّفا(٣).

وفي السعي بينهما: عن امرأة من بني نوفل، قالت: إنّها اطّلعت من خوخة لها، فرأت رسول الله ﷺ وهو يقول: «**إنّ الله تعالىٰ كتب عليكم السّعي، فاسعوا**»، وسمعته ﷺ يقول وهو يسعىٰ: «**ربّ اغفر وارحم، إنّك أنت الأعزّ الأكرم**»(٤).

وعند رمي الجمرات: فكان ﷺ يرمي الجمرة إذا زالت الشّمس، كلّ جمرة بسبع حصيات يكبّر مع كلّ حصاة، ويقف عند الأولىٰ وعند الثّانية فيطيل القيام ويتضرّع، ثمّ يرمي الثّالثة ولا يقف عندها(٥).

ويوم عرفة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أفضلُ الدُّعاء دعاءُ يوم عرفة، وأفضل ما قلتُ أنا والنّبيّون من قبلي: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له**»(٦).

وعند المشعر الحرام في مزدلفة أتىٰ بها النبي ﷺ كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: **ثمّ ركب القصواء حتّىٰ أتىٰ المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه، وكبّره، وهلّله، ووحّده، فلم يزل**

(١) صحيح البخاري (٢/ ٢٠؛ ح ٩٧٠)، وصحيح مسلم (٤/ ٧٢؛ ح ١٢٨٥).
(٢) صحيح البخاري (٢/ ١٥١؛ ح ١٦٠٧)، وصحيح مسلم (٤/ ٦٧؛ ح ١٢٧٢.
(٣) صحيح مسلم (٤/ ٣٨؛ ح ١٢١٨). وانظر: صحيح البخاري (٢/ ١٤٠؛ ح ١٥٥٧).
(٤) صحيح ابن خزيمة (٤/ ٤٠٣؛ ح ٢٧٦٤)، وسنن الدار قطني (٣/ ٢٨٩؛ ح ٢٥٨٢).
(٥) المنتقىٰ لابن الجارود (١/ ١٩٢؛ ح ٥٤١)، وصحيح ابن خزيمة (٤/ ٥٢٦؛ ح ٢٩٥٦).
(٦) موطأ مالك (٢/ ٣٠٠؛ ح ٧٢٦/ ٢٣٩)، وسنن البيهقي (٤/ ٢٨٤؛ ح ٨٤٧٩).

واقفًا حتّىٰ أسفر جدًّا[١]، قال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [البقرة].

وعند العودة إلىٰ منىٰ بعد مزدلفة يستمر الحاج في التلبية حتىٰ يبلغ جمرة العقبة كما أخبر الفضل بن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ النّبيّ ﷺ لم يزل يلبّي حتّىٰ رمىٰ الجمرة[٢].

ويوم العيد: فعن ابن عبّاس، عن أخيه الفضل بن عبّاس، قال: **كنت ردف رسول الله ﷺ، فلم يزل يلبّي حتّىٰ رمىٰ جمرة العقبة، رماها بسبع حصيات يكبّر مع كلّ حصاة**[٣].

وأيام منىٰ أيام التشريق، التي هي أيام أكل وشرب وذكر لله: فعن ابن شهاب: أنّ رسول الله ﷺ بعث عبد الله ابن حذافة أيّام منًىٰ، يطوف يقول: **إنّما هي أيّام أكل وشرب وذكر لله**[٤].

وعند ذبح الهدي والأضاحي، قال تعالىٰ: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج]، إلىٰ غير ذلك من مواطن التكبير والتهليل والتعظيم لله العلي الكبير.

سابعًا: ومن مظاهر تعظيم الله في شعيرة الحجّ: تذكُّر المواقف الإبراهيمية، فإبراهيم عليه السلام له حضور عظيم في شرعتنا، وكل مظاهر الحضور مرتبطة بالتوحيد الخالص، وإظهار مشاعر التعظيم لله، فإبراهيم أبو الأنبياء، وأبو إسماعيل جد العرب، وصاحب الحنيفية السّمحاء، وهو الذي رفع مع ابنه إسماعيل قواعد البيت الحرام، وهو صاحب المقام الذي لا يزال موجودا بجانب الكعبة المشرفة، وزوجه هاجر أم إسماعيل هي التي كانت تهرول بين الصفا والمروة تطلعا للغوث الإلهي، وماء زمزم هو تكرمة الله لإسماعيل ولأمة الإسلام من بعده، والجمرات هي مواقف ابتلاء الله لإبراهيم في ذبح ابنه الوحيد طاعة لله، فكان الصبر والاحتساب من الابن وأبيه، وكان النجاح والفلاح، وكانت ذكرىٰ في الآخرين، وإبراهيم وآله مذكورون في تشهدات صلواتنا فيما يعرف بالصلاة الإبراهيمية.

وجاء مجدّد الحنيفية الإبراهيمية محمّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليرفع ما ألحقته الجاهلية العربية بالدين الحقّ من مظاهر الوثنية، فطهر الله به الكعبة المشرفة من الأوثان، التي بلغ عددها ٣٦٠

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ١٤٠؛ ح ١٥٥٧)، وصحيح مسلم (٤/ ٣٥؛ ح ١٢١٣).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ١٣٧؛ ح ١٥٤٣)، وصحيح مسلم (٤/ ٧١؛ ح ١٢٨١).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ١٣٧؛ ح ١٥٤٣)، وصحيح مسلم (٤/ ٧١؛ ح ١٢٨١).

(٤) موطأ الإمام مالك (٣/ ٥٥٠؛ ح ١٣٩٣).

صنما، كل حي من أحياء العرب له منها صنم، فطهر الله النبي الكريم منها البيت الحرم يوم الفتح، فعن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال : **دخل رسول الله ﷺ مكّة يوم الفتح وعلىٰ الكعبة ثلاثمائة وستّون صنمًا، قد شدّ إبليس أقدامها برصاص، فجاء ومعه قضيب فجعل يهوي به إلىٰ كلّ صنم منها، فيخرّ لوجهه ، فيقول:** ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء]، **حتّىٰ مرّ عليها كلّها**[(١)]. فظلت مكة البلد الحرام من ذلك اليوم وإلىٰ يوم الناس هذا خالية من الوثنية.

هذا الحضور الإبراهيمي يعايشه المؤمن واقعا ومشاهدة في مناسك الحج، إنها الآيات التي ما زالت قائمة، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك ما خصّ الله به الكعبة البيت الحرام من حين بناه إبراهيم وإلىٰ هذا الوقت: من تعظيمه وتوقيره وانجذاب القلوب إليه، ومن المعلوم أن الملوك وغيرهم يبنون الحصون والقصور، ثم لا يلبث أن ينهدم ويهان، والكعبة بيت مبني من حجارة سود بواد غير ذي زرع، ليس عنده ما تشتهيه الأنفس من البساتين والمياه، ولا عنده عسكر يحميه من الأعداء، بل كثيرًا ما يكون في طريقه من الخوف والتعب والعطش والجوع ما لا يعلمه إلا الله، ومع هذا فقد جعل الله من أفئدة الناس التي تهوي إليه ما لا يعلمه إلا الله، وهذا مما يعلم بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر وقوىٰ النفوس وأبدانهم، والذي بناه قد مات من ألوف السنين، ولهذا كان أمر البيت مما حيّر هؤلاء الفلاسفة والمنجمين؛ لكونه خارجًا عن قوانين علومهم، حتىٰ اختلقوا لذلك من الأكاذيب ما يعلمه كل عاقل لبيب، مثل قول بعضهم: إنّ تحت الكعبة بيتًا فيه صنم يبخّر ويصرف وجهه إلىٰ الجهات الأربع ليقبل الناس إلىٰ الحج. وهذا ممّا يعلم كلُّ من عرف أمر مكّة أنه من أبين الكذب»[(٢)]. وقال: «ومعلومٌ باتفاق الأمم والنّقل أنّ إسماعيل تربّىٰ بأرض مكّة، فعلم أنّها فاران، وأنّه هو وإبراهيم بنيا البيت الذي ما زال محجوجًا من عهد إبراهيم، تحجُّه العربُ وغير العرب من الأنبياء وغيرهم كما حج إليه موسىٰ بن عمران ويونس بن متىٰ. ولما بعث الله محمدا أوجب حجّه علىٰ كل أحد فحجت إليه الأمم من مشارق الأرض ومغاربها»[(٣)].

---

(١) الأحاديث المختارة (١٢/ ٣٤٢؛ ح ٣٧٧)، والمعجم الصغير (٢/ ٢٧٢؛ ح ١١٥٢).

(٢) الصفدية، لابن تيمية (١/ ٢٢٠-٢٢١).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (٦/ ١٣٥-١٣٦).

ثامنًا: غالب شعائر الحج مرتبطة بأحجار، فالكعبة المشرفة من الحجر، والحجر الأسود حجر، ومقام إبراهيم حجر، والصفا والمروة حجارة، وكذلك عرفات ومزدلفة، والجمرات حجارة ترمىٰ بحجارة، لكن المؤمن يفعل ذلك وقلبه معلق برب الحجارة، ولولا أمر الله بذلك، لم تتميز هذه الحجارة عن غيرها، وقد نبه الفاروق رضي الله تعالىٰ عنه إلىٰ هذا المعنىٰ: فعن عابس بن ربيعة ، عن عمر ﷺ: أنّه جاء إلىٰ الحجر الأسود فقبّله، فقال: **إنّي أعلم أنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت النّبيّ ﷺ يقبّلك ما قبّلتك**[1].

وهذا ما غاب عن إبليس الطريد حين رفض السجود طاعة لله وتحية لآدم، فأبىٰ واستكبر وكان من الكافرين، وأضره قياسه الفاسد حين قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢] ۞

(١) صحيح البخاري (٢/ ١٤٩؛ ح ١٥٩٧)، وصحيح مسلم (٤/ ٦٦؛ ح ١٢٧٠).

الخاتمة

لقد صدق علماؤنا حينما قرروا في كثير من الألفاظ الشرعية المتداخلة، أنها إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت، من ذلك: التوبة والاستغفار، والنبي والرسول، والفقير والمسكين، ونحوها.

وكذلك الإسلام والإيمان إذا اجتمعا في نص شرعي واحد، كان لكل لفظ معنىٰ خاص، فيكون الإسلام بمعنىٰ الأعمال الظاهرة التي تقوم بالجوارح، والإيمان يكون بمعنىٰ الأعمال الباطنة التي لا يطلع عليها إلا رب العالمين، وإذا ذكر أحدهما دون الآخر، اجتمع المعنيان في اللفظ المذكور، بمعنىٰ إذا ذكر الإسلام وحده في نص شرعي اشتمل معناه علىٰ الأعمال الظاهرة والباطنة، وكذلك الأمر في الإيمان.

وقد ظهر في هذا البحث علاقة الإسلام (الأعمال الظاهرة) بالإيمان القلبي (الأعمال الباطنة)، فالإسلام ثمرة الإيمان، ودليل وجود الإيمان في القلب، والإيمان أساس صحة الإسلام، وشرط قبوله عند الله، وهو في الوقت ذاته عامل استمراريته وحيوته في واقع الناس.

والمقصود بيان أن الأعمال الظاهرة التي هي الإسلام لا بد لها من أساس اعتقادي يحركها ويحفزها ويجعلها صادقة ومقبولة عند الله، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؛ ومهمة ذلك للإيمان، وهذا القدر يميز بين المؤمن الصادق والمنافق المخادع.

وأن الأعمال الباطنة (الإيمان) لا بد لها من مظاهر تدل عليها، وتؤكد وجودها، فإن الإيمان لا يظل حبيسا في القلب حتىٰ تعبر عنه الجوارح، وقد تواترت نصوص القرآن والسنة في تقرير هذا المعنىٰ، والربط بين الإيمان وأعمال الجوارح. فليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، وإنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل.

وقد تبين في هذا البحث العلاقة الوثيقة بين أركان الإسلام الخمسة، والإيمان القلبي، الذي أساسه الإيمان بوجود الله، والإيمان بوحدانيته، وما يلحق ذلك من التعظيم والإجلال له سبحانه وتعالىٰ، والتعظيم لشرعه وما يحبه من الأعمال الظاهرة والباطنة.

ثبت المراجع

- الأحاديث المختارة، ضياء الدين المقدسي، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.
- إحياء علوم الدين محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، الناشر دار االمعرفة، بيروت.
- أسرار الصلاة لابن قيم الجوزية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧ مكتبة المسلم، القاهرة.
- البحر الزخار المعروف بمسند البزار، مؤسسة علوم القرآن – بيروت، الطبعة: الأولىٰ ١٤٠٩هـ
- التحرير والتنوير لابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
- تفسير القرطبي، مصدر الكتاب: موقع يعسوب.
- جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠هـ.
- جامع الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، سنة النشر: ١٩٩٨م.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، تحقيق: علي الألمعي وغيره، دار الفضيلة، الرياض، ط الأولىٰ، ١٤٢٤هـ.
- ديوان الإمام عبدالله بن المبارك، تحقيق: سعد كريم الفقي، دار اليقين للنشر والتوزيع، مصر المنصورة.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة ١٤، ١٤٠٧ تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.
- الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيثمي، مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفىٰ الباز.

- سنن ابن ماجه، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- سنن أبي داود، دار الكتاب العربي، بيروت.
- سنن الدارقطني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولىٰ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م
- السنن الكبرىٰ للبيهقي، مجلس دائرة المعارف العمانية بحيدر آباد الدكن – الهند، الطبعة: الأولىٰ ١٣٥٢هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩١هـ.
- شرح مشكل الآثار، أبو جعفر الطحاوي، مؤسسة الرسالة - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة - بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م
- صحيح ابن خزيمة، دار الميمان - الرياض – السعودية، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- صحيح البخاري، دار طوق النجاة – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ
- صحيح مسلم، دار الجيل، بيروت، ترقيم الأحاديث، وفق طبعة: (دار إحياء الكتب العربية - القاهرة).
- الصفدية، لابن تيمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ الناشر، مكتبة ابن تيمية، مصر، تحقيق : د. محمد رشاد سالم.
- مدارج السالكين، لابن القيم، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ – ١٩٧٣، تحقيق : محمد حامد الفقي.
- المستدرك علىٰ الصحيحين، للحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت.
- مسند أحمد بن حنبل، جمعية المكنز الإسلامي- دار المنهاج، الطبعة: الأولىٰ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- مصنف عبد الرزاق، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٠: ١٤٠٣هـ - ١٩٧٠: ١٩٨٣م.

- المصنف لابن أبي شيبة، دار القبلة - جدة - السعودية، مؤسسة علوم القرآن - دمشق - سوريا، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٧هـ.
- المطالب العالية، لابن حجر العسقلاني، دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولىٰ ١٤٢٠هـ.
- معالم التنزيل، للبغوي، تحقيق محمد النمر وعثمان ضميرية، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الرابعة، ١٤١٧هـ.
- المعجم الأوسط، الطبراني، دار الحرمين – القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة ابن تيمية – القاهرة
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية – بيروت.
- المنتقىٰ من السنن المسندة، لابن الجارود النيسابوري، دار التقوىٰ للطبع والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة: الأولىٰ ١٤٢٨هـ.
- موطأ مالك، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية، أبو ظبي، الإمارات، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

الموضوعات

المقدمة	٢
المطلب الأول: أثر الشهادتين في تعظيم الله	٤
المطلب الثاني: أثر الصلاة في تعظيم الله	٩
المطلب الثالث: أثر الزكاة في تعظيم الله	١٩
المطلب الرابع: أثر الصيام في تعظيم الله	٢٣
المطلب الخامس: أثر الحج في تعظيم الله	٢٧
الخاتمة	٣٥
ثبت المراجع	٣٦
الموضوعات	٣٧